غزوة تبوك

وكانت في رجب سنة تسع للهجرة، فقد علم رسول الله ﷺ أن الروم قد اتَّعَدُوا مع بعض القبائل ـ من النصارى ـ كلخم وجذام وعاملة وغسان، ابتغاء غزو المدينة، في وقت أينعت فيه ثمار المدينة، وبلغت الحرارة أشُدَّها، وكان الناس في عسر وضيق. وعَوَّد رسول الله ﷺ المسلمين إذا أراد أن يخرج إلى القتال أن يُوَرِّي عن وجهته، حتى يباغت عدوه، ويأخذه على غرة، وقد حول عن نهجه هذا يوم الخروج إلى «تبوك» فأخبر الناس بغايته، وكشف لهم عن بغيته، وكان ذلك لبعد الشقة، والشدة التي نزلت بهم، حتى يكونوا على بَيِّنةٍ من أمرهم، ويعدوا العدة اللازمة له، وليعلموا حجم العدو الذي سيواجهونه وعدته وعتاده، وكانت الروم المقصد.

وكان لزاماً ـ والناس في حرج شديد، وعسر أكيد، أن يحث ولي الأمر أغنياء المسلمين على البذل والإنفاق في سبيل الله، لدعم جيشهم، وشد أزره، وكان كبار الصحابة أسرعهم استجابة، وأكثرهم عطاء.

هاهو ذا «أبو بكر الصديق» رضي الله عنه، يأتي رسول الله ﷺ بكل ماله، فيضعه بين يدي رسول الله ﷺ، حتى إذا سأله رسول الله ﷺ: (ماذا أبقيت لأهلك يا أبا بكر؟) فردَّ بثقة بالغة، وقال: أبقيت لهم الله ورسوله ﷺ، ثم جاء «عمر بن الخطاب» رضي الله عنه بنصف ماله، وقدَّم «عثمان بن عفان» رضي الله عنه ألف دينار ذهباً ومائتي بعير، وتهلَّل وجه رسول الله ﷺ، وغمرته الفرحة العارمة فقال: (اللَّهمَّ! ارض عن «عثمان» فإني راضٍ عنه).

وجاء الفقراء إلى رسول الله ﷺ صفر اليدين، وسألوه أن يحملهم،

فردهم وهو يقول: (لا أجد ما أحملكم عليه)، فانصرفوا وعيونهم تجود بالدموع التي لا يملكون سواها، ونزل قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩١، ٩٢].

ولكن، ما صنع المنافقون يومئذٍ؟ إنهم لم يكتفوا بعدم الخروج، ولكن لجأوا إلى ما هو أسوأ من ترك الخروج، فراحوا يثبطون الناس، ويفتون من عزائمهم، ويقولون: أفي هذا الحر الشديد تريدون الخروج للجهاد؟ إنهم يريدون بث الفرقة بين المؤمنين وبين قرة عيونهم، رسول الله ﷺ، ونزل الرد الإلٰهي يقول: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨١]، وأنّى لهم أن يفقهوا؟ وقد جحدوا فضل من خلقهم، وأسبغ نعمه عليهم ظاهرة وباطنة.

وكان أبو ذر الغفاري قد أبطأ به بعيره، فحمل متاعه على ظهره، واقتفى أثر رسول الله ﷺ، ثم نظر المسلمون فرأوا آتياً من بعيد، فأخبروا رسول الله ﷺ به، فقال: (كن أبا ذر)، فلما دنا منهم، إذا هو أبو ذر. ثم نظروا مرة أخرى، فرأوا آتياً آخر فقال رسول الله ﷺ: (كن أبا خيثمة)، فلما دنا منهم، إذا هو أبو خيثمة)، وكان ثلاثة من المؤمنين هم: «كعب بن مالك» و«مرارة بن الربيع» و«هلال بن أمية» قد تخلفوا، فأمر النبي ﷺ بقطيعتهم، وبعد خمسين ليلة أنزل الله توبتهم، فقال: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٧، ١١٨]. وكان المنافقون يتعلّلون بعلل شتى،

ويعتذرون لرسول الله ﷺ حتى يعفيهم من الخروج معه، ولم يكفهم ذلك حتى أرجفوا بعلي بن أبي طالب الذي خلفه رسول الله ﷺ في أهله، فقالوا: ما خلَّفه إلا استثقالاً له، وتخففاً منه، فلحق «عليٌّ» برسول الله ﷺ حتى أدركه بالجرف، ولما أخبره بمقالتهم، قال: (كذبوا، ولكني إنما خلفتك لما ورائي، فارجع فاخلفني في أهلي وأهلك، أفلا ترضى يا علي؟ أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى! إلا أنه لا نبي بعدي) فرجع «عليٌّ» إلى المدينة، ومضى النبي ﷺ إلى غايته.

وكان الروم قد تراجعوا قبل وصول الرسول ﷺ، وتفرق النصارى العرب بعد اجتماع، ولما وصل رسول الله ﷺ إلى (تبوك) جاءه صاحب «أيلة»، وأهل «جرباء» و«أذرح» وصالحوه على الجزية، فكتب لهم بذلك العهود، وأرسل «خالد بن الوليد» إلى «دُومَة» فأسر ملكها (أكيدراً)، ولما جاءه به صالحه على الجزية، وخَلَّى سبيله، وأقام رسول الله ﷺ بضع عشرة ليلة ثم أقفل عائداً من تبوك إلى المدينة.